التناص عند ابن خفاجة

[1]أ.م.د . فاطمة علي ولي
[1]جامعة سامراء (العراق)

Intertextuality in the poetry of Ibn Khafaja

[1]Dr. FATIMAH ALI WELI*
[1] https://orcid.org/0009-0002-5387-568X
[1]University Of Samarra (Iraq), dr.fatima000@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/10/27 تاريخ القبول: 2023 /11/21 تاريخ النشر: 2024 /03/01

الملخص:

تأتي هذه الدِّراسَة في إطار الدِّراسَات الأدبية التي تهتمُّ بالنصِّ الأدبي، وتُسلِّط الضوءَ على العلاقات المتوارثة داخل الترابط الشعري بين رحم الشعر وأهله؛ بما يُحقِّق أعلى درجات التلوين الفني، محاولةً رصد التناص وأنواعه داخل النص الشعري لابن خفاجة، معتمدة على المنهج الوصفي التحليلي، الذي يُعنى بتتبُّع الظاهرة؛ للكشف عن مدى تَحقُّق وسائل الصورة وآلياتها وتوضيح أثرها على موضوع جماليات التناص ، وتتجلَّى أهميّتها في التحليل على مستوى الإبداع النصي، وتجاوز إطار المعنى الجديد إلى معنى قديم، قدمه الشاعر داخل وعاء خاص به، لتلامس روح المتلقي، ويدق على آذنه المعنى تكراراً، ليدل على ثراء الشاعر دينياً وفكرياً، وهو ما توصلت إليه الدراسة من ثراء التناص الديني لدى الشاعر، وخاصة القرآن الكريم، ومن بعده الحديث الشريف، ومن بعدهما التناص الأدبي. قد وظف ابن خفاجة التراث الديني والشعري الذي يتناغم مع ألفاظه، ومعانه، وقد حملت بعداً ثقافياً من خلال ذلك التوظيف من خلال معرفته بالأدب العربي وشعرائه،وقد كان ذلك جلياً واضحاً في استثمار النماذج من خلال الرؤية والتوضيح.

كلمات مفتاحية: التناص.، ابن خفاجة.، القرآن الكريم.، الحديث الشريف.، الشعر.

Abstract:

This study comes within the framework of literary studies that are concerned with the literary text, and sheds light on the inherited relationships within the poetic connection between the womb of poetry and its people. In order to achieve the highest degree of artistic coloring, an attempt to monitor intertextuality and its types within the poetic text of Ibn Khafaja, relying on the descriptive and analytical approach, which is concerned with tracking the phenomenon. To reveal the extent to which the means and mechanisms of the image are achieved and to clarify their impact on the subject of the aesthetics of intertextuality, and its importance is evident in the analysis at the level of textual creativity, and to go beyond the framework of the new meaning to an old meaning, which the poet presented inside his own container, to touch the soul of the recipient, and the meaning rings on his ears repeatedly, to indicate The poet's religious and intellectual richness, which is what the study found regarding the richness of the poet's religious intertextuality, especially the Holy Qur'an, and after it the Noble Hadith, and after them literary intertextuality. Ibn Khafaja employed the religious and poetic heritage that is in harmony with his words and meanings, and it carried a

cultural dimension through that employment through his knowledge of Arabic literature and its poets, and this was clearly evident in the exploitation of models through vision and clarification.

Keywords: intertextuality; Ibn Khafaja; the Holy Qur'an; the Noble Hadith; poetry.

مقدمة:

تتجه نظرية التناص للقارىء والنص نصًا منفتحًا، وأنه شبكة خلافية ونسيج من الآثار تشير بطريقة لا نهائية إلى شيء ما غير نفسها، ولهذا فإن النص يتخطى أو يجتاح كل الحدود المخصصة له. والتناص وإن كان من المصطلحات النقدية الحديثة، فإننا قد نجد له بعض البذور في نقدنا العربي القديم، فالاقتباس والتضمين والسرقات الأدبية كلها تؤشر إلى وجود نص أو أكثر في النص الحالي، ومن هنا نلمس أن ثمة صلات قوية بين التناص والمصطلحات المجاورة له دلاليا كالاقتباس والتضمين والسرقات، فكلها تؤكد على إيمانها بقضية انفتاح النصوص، وأن أمر وجود نص آخر فيها أمر اعتيادي.

إن التراث اللغوي لأي أمة يجمع بين ثقافتها المعاصرة من الماضي القريب المتمثل في التراث الشعبي منتجا أو منقولاً، والماضي البعيد، المتوغل في القدم، ويُعرف المجتمع بلغته ولهجته وتاريخه وعاداته وتقاليده وفنونه المحكية.

ولأهمية التناص وحداثته وصلاته القوية بغيره من المصطلحات المتقاربة معه في نقدنا العربي القديم، فقد نهضت هذه الدراسة للوقوف على مفهوم التناص وماهيته وإبراز مدى التقارب بينه وبين غيره من المصطلحات الأخرى، واعتمدت الدراسة في منهجها على الإفادة من عنصري الوصف والتحليل في تناول التناص.

وتكمن أهمية التناص في أنّه يهتم بالسيميائيات النصية وبالشعرية الغربية حيث يعد من أهم المفاتيح الإجرائية لفهم الأدب ولما لديه من فعالية إجرائية في تفكيك النص وتركيبه، وكذلك أداة أدبية لمقاربة النص الأدبي واستنطاقه ومعرفة بنيته العميقة.

أسباب البحث:

قد اختير هذا الشاعر لأنه يعد من أبرز الشعراء الأندلسيين الذين وظفوا التناص فى شعرهم. وقد جاءت هذه الدراسة فى جانبين، الجانب الأول النظرى، الذى يهتم بمفهوم التناص، وآلياته، والجانب التطبيقى، الذى اهتم بالتناص فى النصوص الشعرية عند ابن خفاجة.

هدف البحث:

- الوقوف على أهم مظاهر التناص في الشعر الأندلسي من خلال ابن خفاجة.
- ما هو أهم حضور أنواع التناص عند ابن خفاجة؟
- هل توغل ابن خفاجة مع الدين في تناصه، وما دلالة ذلك؟
- التعرف على تناص ابن خفاجة من خلال شعر ابن خفاجة،وبيان التناص لغة واصطلاحاً، ودراسة نصوص التناص في شعر ابن خفاجة .

منهج الدراسة:

المنهج التحليلي الوصفي الذي يبين مواضع التناص الديني والأدبي من خلال عرض النصوص الشعرية المتعلقة بها، وتحليلها، وإظهار التناص بها.

الدراسات السابقة:

1. دراسة مدين بن كروم: الطبيعة في شعر ابن خفاجة الأندلسي، وتخريج ما فيها من شعر الطبيعة، وعلاقته بالأغراض الشعرية، وعرج على بعض الجوانب الفنية والبلاغية واللغوية.

2. دراسة عبد العظيم عبدالقادر: الصورة الشعرية عند ابن خفاجة، وركزت الدراسة على مصادر الصورة الفنية: البسيطة والمركبة، مستعينا بالجوانب البلاغية مثل الاستعارة والتشبيه والمجاز.

3. دراسة مالك عبدالهادي زامل الكساسبة : مظاهر التناص الديني والأدبي في شعر ابن خفاجة الأندلسي ، وخلصت الدراسة إلى أن ابن خفاجة نوَّع من التناص مع النصوص الغائبة القديمة في شعره، وخاصة النصوص القرآنية، وتعالقت بعض نصوصه مع نصوص الشعراء الذين سبقوه، وهذا لا يعني أن اقتصر على شكل محدد من التناص بل نوع في تناصياته ووظفها أجمل توظيف.

4. دراسة نوال عبد ربي: الصورة الفنية في شعر ابن خفاجة مقاربة أسلوبية، تناولت الدراسة مستويات الصورة ومدى الانحراف الدلالي في توظيفها عند ابن خفاجة، والعناصر التي تشكلت منها.

5. دراسة صالح الويس: التشكيل الصوري في شعر ابن خفاجة - رؤية معاصرة -، يهدف إلى إحداث أكبر قدر ممكن من التناسب والتألق بين عناصر مادته، وبذلك يكون التشكيل في الادب من العمل التصويري، فالتشكيل يعطي الوجود المادي صورته، لذلك تصدق تسمية العمل الفني بالعمل التصويري الذي يكون فيه التشكيل من المادة الصرف إلى المادة الجمالية عند التشكيل وعند كونها صورة.

أهمية البحث:

- أهمية التناص، وعلاقته بالعمل الأدبي؛ لكونه يظهر ثقافات المبدع، سواء الشاعر أو الناثر.
- مكانة الشاعر ابن خفاجة في الشعر العربي الأندلسي. ولاسيما أنه عاش في مجتمع يُعلى من شأن الانتساب إلى الدين، وكان الفخر بالدين أفضل من الفخر بالأحساب والأنساب.

أولاً: التمهيد:

انتقلت الخلافة الاسلامية، إلى الأندلس، ثم ازدهر عهدهم بعد نشأة الخلافة العباسية في الشرق على أنقاض الخلافة الأموية، حيث هرب عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس، وهناك أسس الدولة الأموية الجديدة التي استمر بفضلها الحكم الاسلامي في الأندلس ثمانية قرون تقريبا، أنتجت كما كبيرا من الشعر والنثر، وكان من روادها ابن خفاجة الذي قلد الشعراء المشرقيين في الأسلوب والطريقة.

ابن خفاجة، هو الوزير الفقيه أبو اسحاق ابراهيم بن أبي الفتح بن خفاجة الهواري الأندلسي(1)، ولد في جزيرة شقر من أعمال بلنسية من بلاد الأندلس في سنة خمسين وأربعمائة (2)، هي بليدة بين شاطبة وبالنسبة، و لأن الماء محيط بها سميت جزيرة.

توفي ابن خفاجة في 26 شوال 533هـ، بعد أن قضى ما يزيد عن الثمانين عاماً (3) يشار إليه بالبنان شاعرا كبيرا وكاتبا مجيدا لا يتكسب، ولا يتودد من أجل المال (4)، لهذا قل نتاجه، وقد جمعت أعماله في ديوان شعري حوى الشعر والنثر، كما رتبه ابن خفاجة قبل موته، وقد نشر بتحقيق الدكتور/ السيد مصطفى غازي الإسكندرية، 1960، (5).

عاصر ابن خفاجة عصر الطوائف، وعصر المرابطين، ووهناك فرق بين العصرين في النتاج الأدبي، فنجد أن أصحاب الاتجاه الواحد مثل: ابن خفاجة؛ قد أصابهم الملل والكسل في عهد الطوائف، بينما انطلقت شاعريتهم ثانية في عصر المرابطين، وهذا يجعلنا نقول بأن عصر المرابطين حفل بابن خفاجة الذي صار له شأن كبير في النتاج الأدبي في تلك المدة (6).

وقد كان لابن خفاجة في النثر مذهبا فنيا أحسن فيه الشاعر، وطريقة تستحق الدراسة، وذلك لما فيها من الاعتناء بالمفردة ومراعاة العبارة والأسلوب، يقول عنه صاحب قلائد العقيان في حديثه عن منهجه الإبداعي "وناهج طريقها، العارف بترصيعها وتنميقها؛ الناظم لعقودها، الراقم لبروها، المجيد لإرهافها، العالم بجلائها وزفافها، تصرف في فنون الإبداع كيف شاء، وأبلغ دلوه من الإجادة الرشاء، فشعشع القول ورقمه، ومد في ميدان الإعجاز طلقه، فجاء نظامه أرق من النسيم العليل، وأنفق من الروض البليل، يكاد يمتزج بالروح، وترتاح الله النفس مكال غصن المروح، إن شبب فغمزان الجفون الوطف، أو اشارت البنان التي تكاد تعقد من اللطف، وإن وصف سراه والليل بهيم ما فيه وضوح، وخد الثريا بالندى منضوح، فناهيك من غرض انفرد بمضماره، وتجرة لحمي ذمارة...(7)

ثانياً: التناص نشأة وتأصيل.

التناص لغة: يرجع التناص إلى أصل مادة نصص، وفي المعاجم العربية التراثية يدل على الإظهار، كقول ابن دريد "نصصت الحديث أنصه نصا إذا أظهرته،". ويرد في لسان العرب بمعنى الاتصال حيث يقال هذه الفلاة تناصي أرض كذا أو تناصيها وتتصل بها (8).

اما التناص لفظ فيعود جذره اللغوي نصص وهناك مجموعة من المعاني في المعاجم تفسر هذا الجذر، فقد جاء أن النص: بمعنى الرفع. وكذلك التحريك حتى تستخرج من الناقة أقصى سيرها، وايضا الإسناد إلى الرئيس الأكبر والنص التوقيف، والنص التعيين على شيء ما (9).

أما في المعاجم العربية الحديثة فورد بمعنى الازدحام، فقد جاء في المعجم الوسيط تناص القوم ازدحموا (10).

التناص اصطلاحاً: فلكونه وسيلة ثرية للنص فقد تعددت تعريفات التناص في الكتب النقدية الجديدة، فهو نص يتسرب إلى نص آخر، تعرفه حسب مدلولات الكاتب، وماهية ربطه بينه وبين النص الجسد، وهدف كاتبه من ذلك الربط(11).

المبحث الأول

التناص الديني

يستمد الشاعر معانيه من البيئة حوله، ومن موروثه الديني والثقافي والأدبي، ويعمد الشعراء إلى الاقتباس من القرآن الكريم؛ لأنه تشريف لهم، لتوصيل دلالاتهم للقارئ وتكثيفها من خلال انتقائهم للآيات التي تتناسب وطبيعة القصيدة المتوافقة والجو النفسي للشاعر (12).

القرآن الكريم:

استحضر الخطاب الشعري قدسية القرآن الكريم، باعتباره مصدراً أدبياً، يتنسم ذروة البيان والفصاحة أولاً، وباعتباره كتاباً دينياً، تُجمع فيه الفصاحة والبلاغة، والتصديق، فيأخذ منه الشاعر أبعاد النفس الانسانية ونوازعها، كما في قول ابن خفاجة:

أَطَلَّ وَقَد خُطَّ في خَدِّهِ **** مِنَ الشَعرِ سَطرٌ دَقيقُ الحُروفِ
فَقُلتُ أَرى الشَمسَ مَكسوفَةً *** فَقوموا نُصَلّي صَلاةَ الكُسوفِ (13)

وقد تناص الشاعر مع قوله عز وجلأ "فَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ "(سبأ / 9)، فقد أراد الشاعر أن يستحضر لنا هؤلاء الكفار الذين لا يؤمنون بالآخرة، وعظيم قدرة الله فيما بين أيديهم وخلفهم من السماء والأرض، مما يبهر العقول.

في قول ابن خفاجة:

ومرقرق الإفراد أبرق بهجة * * * * ودجا فأطلع في الظلام ضياء

.. كسفت به للشمس حسناً آية * * * تستوقف الرائي لها حرباء

وكأنما نظرت به يوم النوى * * * * عن مقلة بهتت لها كحلاء (14)

وبهت في البيت بمعنى الذي تحير في مصاب أليم، فالخاتم الذي معه يصعب عليه فراه، وكأنه كتب على حامله الفراق، فشبهه بمن بهت، وهو الْبُهْتانُ الباطلُ وهو الَّذِي يُتَحَيَّرُ مِنْ بُطْلانِه، والأَلف وَالنُّونُ زَائِدَتَانِ، وبُهْتاناً موضعُ الْمَصْدَرِ، كما في قولُه عَزَّ وَجَلَّ :وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ (15)، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّأَ تَأْخُذُونَهُ بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً (16).

وفي قوله يمدح قاضي القضاة:

فإذا رمى بكما الصباح دياره * * * فترددا في ساحة العلياء

في حيث جر المجد فضل إزاره * *ومشى الهوينا مشية الخيلاء (17)

وفي قوله:

تلثم منه الريح خداً خجلاً * * * حيث الشرار أعين ترتقب

في مَوقِدٍ قَد رَقرَقَ الصُبحُ بِهِ * * * ماءً عَلَيهِ مِن نُجومٍ حَبَبُ

مُنقَسِمٌ بَينَ رَمادٍ أَزرَقٍ * * * * وَبَينَ جَمرٍ خَلفَهُ يَلتَهِبُ

كَأَنَّما خَرَّت سَماءٌ فَوقَهُ * * * وَانكَدَرَت لَيلاً عَلَيهِ شُهُبُ (18)

وفي الصورة يتفنن بجماليات الطبيعة، فيصف الرياح التي لفحت خد المحبوب، ثم الصبح المترقرق، والنجوم المحببة، والرماد الأزرق، والسماء المنكدرة، والانكدار والكُدْرَةُ مِنَ الأَلوان :مَا نَحا نَحوَ السَّوَادِ والغُبْرَةِ، قَالَ بَعْضُهُمْ :الكُدْرة فِي اللَّوْنِ خَاصَّةً، والكُدُورة فِي الْمَاءِ وَالْعَيْشِ (19)، وفي قوله تعالى (سورة التكوير/ 2) أي تناثرت.

وفي قول ابن خفاجة:

لله نهر سأل في بطحاء * * * أشهى ورود من لمى الحسناء (20)

تحدث ابن خفاجة عن الله تعالى وعن حديثه للنهر، ففي ظل وصفه للنهر بين أن الله تعالى هو مالك الكون، فالنهر له، وهو مالكه، وهو جزء من الأرض، والأرض جزء من الكون، مما يفضي إلى نتيجة أن الله هو خالق هذا الكون، ومالك ما فيه، كما قال تعالى: (المائدة / 17).

وقال:

متقلب في الله بين بشاشة * * * يندي الهشيم بها وبين مضاء (21)

وقد كان التقلب في النعم من عند الخالق عزوجل، فهو المنعم بها، كما في قوله تعالى سورة إبراهيم 34

وفي قوله:

وقلت وحب الدمى ذنبه * * * ألا غفر الله ما أذنبنا (22)

إن الله عز وجل هو غفار الذنوب، وقد دعا الشاعر للدمى بأن يغفر الله تعالى ذنبه، لأنه من صفاته الغفور، وأن من أذنب عليه أن يتوب ويرجع إلى الله عز وجل، وهو واقع في المجتمع الأندلسي آنذاك، الرجوع إلى الكتاب والسنة في قوله: قُلْ يَا

عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (سورة الزمر53).

كما في قوله:

وأشقق من موت الصبا أنني * * * * لآمل أن الله يعفو ويصفح (23)

لأنه هو الذي يعفو ويصفح، لو بلغت ذنوب الإنسان عنان السماء، ثم جاءه تائباً عفا عنه وصفح. ويصور الله بأن له القدرة المطلقة فيقول:

ألا نسخ الله القطار حجارة * * * تصوب علينا والغمام غموماً (24)

والقطار هو القليل من الماء، فهو القادر على أن يحول الماء حجارة، وهو من قدرة الله المطلقة، اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (سورة الطلاق / 12).

وفي قوله:

وهل أنت إلا رحمة الله تنكفيء * * * * عذاباً على أهل المعاصي تنكفي

تَضُمُّ جَناحَ الجَيشِ حَولَيهِ ضَمَّةً * * * * تَكادُ بِها أَضلاعُهُ تَتَقَعقَعُ

فَكَم ضَربَةٍ فَوهاءَ ثَمَّ وَمُقلَةٍ * * * * * جَرَت هَذِهِ تَدمى وَهاتيكَ تَدمَعُ

وَلا بَأسَ إِلّا مِن سُيوفِكَ تُنتَضى * * * ولا سَعدَ إِلّا في رِماحِكَ تُشرَعُ

وَهَل أَنتَ إِلا رَحمَةُ اللَهِ تَنكَفي * * *عَذاباً عَلى أَهلِ المَعاصي فَتَقمَعُ (25)

وفي مدحه لأبي إسحاق، بأنه رحمة من الله عزوجل على عباده، ومع ذلك فهو على أهل المعاصي عذاب شديد، وهو رحمة للطائعين، وعذاب على العاصين، وقد تناص مع قول الله تعالى (سورة الفتح/ 29).

وفي قول ابن خفاجة:

مؤدباً لو كان مستعبداً * * * * لم يعبد الله على حرب (26)

إن الله تعالى هو المستحق للعبادة، ولا يحق للإنسان أن يعبد الله ولو على حرف، وهو المتذبذب في عبادة ربه، كما في قوله سورة الحج 11 أي أنهم عبدوه على وجه الشك، لا على اليقين والتسليم لأمره (27)، هو ذلك لأن الإنسان في عبادته لله عز وجل لابد أن يكون موقناً، مسلماً لأمره.

وفي قوله:

كفى حكمة لله أنك صائر * * * تراباً كما سواك قبل فعدلك

وإن شئت مرأى كيف كون ثانياً * * * فدونك فانظر كيف كون أولك

فهل أنت في دار الفناء ممهد * * * محلك في دار البقاء ومنزلك (28)

فالله عز وجل هو المرجع والمصير، كما في قوله تعالى (آل عمران / 28)، فكل مرجعهم ومصيرهم بعد الموت إلى الله عز وجل. والله هو الخالق للإنسان، الذي سواه وعدله، فقال تعالى (الانفطار/7)، وقد صور ابن خفاجة صورته إلى الإنسان بكونه الكائن الضعيف، الذي يحتاج إلى الرب والخالق، والتأكيد على قدرة الله المطلقة، ويؤكد على سلامة العقيدة وصحتها في ذلك العصر، وأنه عصر شاعت فيه العقيدة الصحيحة.

وفي قوله:

ألا قصر كل بقاء ذهاب * * * وعمران كل حياة خراب (29)

فهو يؤكد أن الدنيا زائلة، وكل عمارها حتما إلى خراب، وأنها ستنتهي، تناص مع قوله تعالى: [الرحمن:2627]

وفي قوله:

وهل من سرور أو أمان لعاقل * * * ومفضي عبور العابرين إلى الموت (30)

فالعاقل من لا يغتر بأيام السرور في هذه الدنيا، ولا يعطي لها الأمان، لأنه حتما سيعبر إلى الموت، كما في قولهيَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ سورة فاطر 5 كما في قوله:

تيقن أن الله أكرم جيرة * * * فأزمع عن دار الحياة رحيلاً (31)

يؤكد أن الانسان سينتقل إلى دار رب، لأن الموت كل الناس ستذوقه، ولسوف يرحلون من هذه الدنيا إلى حياة البرزخ، كما في قوله:

وكل حياة إلى منتهى أجل * * * * * * ولكن حمام أجل (32)

فكل حياة مصيرها إلى انتهاء، وهو تناص مع قوله تعالى (آل عمران /35)

وفي قوله:

أَلا قَصرُ كُلِّ بَقاءٍ ذَهاب * * * * وَعُمرانُ كُلِّ حَياةٍ خَراب

وَكُلٍّ يُدانُ بِما كانَ دانَ * * * * فَثَمَّ الجَزاءُ وَثَمَّ الحِساب

فَلا تُجرِ كَفَّكَ مِن مُهرَقٍ * * * بِما لايَسُرُّ هُناكَ الكِتاب

فَإِنَّكَ يَوماً مُجازى بِهِ * * * * * وَإِنَّ يَداً كَتَبَتهُ تُراب

وَلا خِطَّةٌ غَيرَ إِحدى اِثنَتَينِ * * * إِمّا نَعيمٌ وَإِمّا عَذاب

فَرُحماكَ يا مَن عَلَيهِ الحِساب * * وَزُلفاكَ يامَن إِلَيهِ المَآب (33)

يصور يوم القيامة بالحساب والجزاء، يوم المجازاة على الأعمال، إن كان خيراً فخير، وشراً فشر، فتناص مع قوله تعالى في سورة (الزلزلة/ 68).

وفي قوله:

وهب بما يمضي فيفري كأنما * * * شهاب بها ينقض أو قدر يجري (34)

وهو قدر أله الذي يجري. وفي قوله تعالى (القمر/ 49).

وفي قوله:

ورمى الحفاظ به شياطين العبدي * * * فانقض في ليل الغبار شهاباً (35)

وهو يتحدث عن استراق السمع للشياطين، كما قال تعالى (الجن / 9 وتتحد حركة حصان ابن خفاجة في اتجاه واحد، والملاحظ أن جمالية التناص تظهر بالإحالة إلى الآية القرآنية، لكون يوسف نبي الله رمز للهداية والاصلاح، فأسدل على ممدوحه ما يلائمه من المعاني.

وفي قوله:

وحسبي إذا ما أوجعتني كربة * * * بمؤنس يعقوب ومنقذ يونس (36)

وقد تناص الشاعر في حزنه وألمه، وصحبته لنبي الله يعقوب، بقوله تعالى (الأنبياء/87-88).

وفي قوله:

فَمَن مِثلُ إبراهيمَ وَالصُبحُ أَبلَجٌ * * * * وَمَن مِثلُ إبراهيمَ وَالحَقُّ أَصدَعُ

إِمامٌ تَدانى رَأفَةً وَسَما بِهِ * * * * إِلى المَجدِ بَيتٌ طاوَلَ النَجمَ أَروَعُ

تَجَلّى وَمِن بَطحاءِ مَكَّةَ حَنَّةٌ * * * * إِلَيهِ وَلِلبَيتِ الحَرامِ تَطَلَّعُ

تَرى لِقُرَيشٍ فيهِ بَرقَ مَخيلَةٍ * * * * يَلوحُ وَعِرقاً لِلخِلافَةِ يَنزَعُ (37)

كان نبي الله إبراهيم –عليه السلام يصدع بالحق ولا يخاف في الله لومة لائم، ومن مشاهده تحطيم الأصنام وعدم خوفه من أهله، ولا من علية القوم، وقد انتقل بعد ذلك إلى بناء بيت الله الحرام، حين بناه ورفع قواعده.

الحديث الشريف:

لون الشاعر صوره الفنية من بوتقة الحديث الشريف مولياً الحس الديني الذي تمتع به أهمية لا يمكن إغفالها في بنائه الصوري موظفا صوراً عدة تشكلت مفرداتها من الحديث والسيرة النبوية وكذلك مواقف النبي –صلى الله عليه وسلم وسيرته العطرة، وقد كان التعظيم لله تعالى في المجتمع الأندلسي في عصر ابن خفاجة وصل لأوجه، وأن تحركات الإنسان وسكناته تكون لله عز وجل، فكان المرء يحب ويبغض في الله تعال، وفي قوله:

أرسى به في الله طود سكينة * * * وعدالة وامتد حبل رجاء

أبدا له في الله وجه بشاشة * * * ووراء ستر الغيب عين بكاء (38)

وفي مدحه للقاضي نجد أن البشاشة والابتسامة في وجه الغير أجر عن الله تعالى، وهو تأصيل لمفهوم أجر المحسنين على رب العالمين، إذ أن كل المعاملات الاجتماعية تكون ابتغاء وجه الله تعالى، حتى الابتسامة في وجه الغير ، كما في الحديث الشريفقالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ ، وَأَمْرُكَ بِالمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنِ المُنْكَرِ صَدَقَةٌ ، وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِي أَرْضِ الضَّلَالِ لَكَ صَدَقَةٌ ، وَبَصَرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِيءِ البَصَرِ لَكَ صَدَقَةٌ ، وَإِمَاطَتُكَ الحَجَرَ وَالشَّوْكَةَ وَالعَظْمَ عَنِ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ ، وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَة(39)، وفي قوله:

ولو أن غير الله كان أصابه * * * * لجاشت نفوس لا تقاد صعاب (40)

وقد فاح البيت بالإيمان بالقدر، وقد رضخت النفوس لهذا الإيمان، وهو دليل العقيدة الصافية في عصر المرابطين له دوراً كبيراً في نشر العقيدة بين الناس، وتعليم الناس أمور الدين، فقد أعلت دولة المرابطين من العلماء، وكان لهم بصماتهم في شتى نواحي الحياة الاجتماعية (41).

وقد تناص مع الإيمان بالقدر لكونه أصل من أصول الإيمان، جاء في الحديث أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره (42).

وفي قوله:

ما جنة الخلد إلا في دياركم * * * ولو تخيرت هذا كنت أختار

لا تخشوا بعد ذا أن تخلوا سقرا * * * فليس تدخل بعد الجنة النار (43)

يتحدث عن الحساب، وفيه الناس ريقين، إما الجنة وإما النار، وقد تناص مع قول بلال بن سعد: يا أهل الخلود، يا أهل البقاء، إنكم لم تخلقوا للفناء، وإنما تنقلون من دار إلى دار، كما نقلتم من الأصلاب إلى الأرحام إلى الدنيا، ومن الدنيا إلى القبور، ومن القبور إلى الموقف، ومن الموقف إلى الخلود في الجنة أو النار (44).

وفي قوله:

ولم أر كالنفاق شكاة غر * * * ولا كدم الوريد له دواء (45)

بين أن النفاق شر وخيم، إظهار الدين وإبطاله خلافه، ثم إبطان ما يخالف الدين وهو شيء من المعصية لله.

وفي قوله:

إن الصغيرة قد تجر عظيمة * * * وربما أودى بشاه بيدق (46)

وهو يقسم الذنوب إلى صغائر وكبائر، وأن الصغيرة تجر الكبيرة، والبيدق هو قطعة الحجر الصغيرة التي بين الشاعر من خلالها أنها تهلك صاحبها، كما تهلك الشاة بالحجر الصغير، وفي ذلك قول النبي –صلى الله عليه وسلم إياكم ومحقرات الذنوب فإنما هي مثل محقرات النوب كقوم نزلوا في بطن واد، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود حتى أنضجوا خبزتهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه (47).

المبحث الثاني
التناص الأدبي

إن الأدب هو زبدة التجارب الاجتماعية، والفكرية، والثقافية، والتاريخية، فيتناقل الأديب تجارب أمته، فتنقل التجارب من جيل إلى جيل، عبر مشاركة الأديب هذا التراث الأدبي، فتتلاقح الأجيال بأفكار الأخرى، لتنشأ معارف ثقافية موروثة ممتدة عبر التاريخ.

يعد ابن خفاجة من الشعراء المبرزين في الشعر العربي الأندلسي، واستطاع الوصول إلى معاني إنسانية عميقة، وقد يحسب لابن خفاجة أنه احتفى بدلالات القداسة كلعلع وتهامة ونجد، فدوماً ما كان يشتكي همومه إليها، كما في قوله:

ويا بانة الوادي بمنعرج اللوى * * * * أتصغي على شحط النوى فأقول
ويا لفحات الريح من بطن لعلع * * * ألا جاد من ذاك النسيم بخيل
ويا خيم نجد دون نجد تهامة * * * ونجد ووخد للسرى وذميل
ويا ريم نجد والعوادي كثيرة * * * بحكم الليالي والوفاء قليل (48)

كما في قول ابن عربي:

أَلا يا بانَةَ الوادي * * * * بِشاطي نَهرِ بَغدادِ
شَجاني فيكِ مَيّادٌ * * * * طَروبٌ فَوقَ مَيّادِ
يُذَكِّرُني تَرَنُّمُهُ * * * * تَرَنُّمَ رَبَّةِ النادي
لَقَد أَصبَحتُ مَشغوفاً * * * بِمَن سَكَنَت بِأَجيادِ (49)

وقد أضاف ابن خفاجة لمؤسسي الطريقة البدوية من شعراء المشرق إضافة جليلة، وهي أنه وسع من دائرة المكان الضيقة لديهم إلى أن يصبح غرضاً موسعا، اصطلح عليه النقاد بغرض الطبيعة والذي أبدع فيه وأصاب.

وفي قوله:

لا والذي تجلى الكرو * * * ب به وتفرج الخطوب
لا بت إلا بين دمـ * * * * ـع ينهمي وحشا يذوب (50)

يقسم الشاعر بمفرج الكروب، ومزيل الكروب، وهو بيان للحفاظ على الثقة واليقين في الله تعالى، فهو مفرج الكروب، ومذهب الهم والغم، وتناص مع قول الشاعر:

أَمَا والذي أَبْكَى وأَضْحَكَ والذي * * * *أَماتَ وأَحيا، والذي أَمْرُه الأَمْرُ (51)

وفي قوله:

وَإِنَّ سُقمي لَمِن طَرفٍ بِهِ سَقَمٌ * * * * خُلوٍ مِنَ الكُحلِ مَملوءٍ مِنَ الكَحَلِ
أَشكو الظَماءَ وَرَيّي في حَصى بَردٍ * * * لَو بَلَّ مِن غُلَلي أَبلَلتُ مِن عِلَلي
فَمَن لِصَبٍّ يَبيتُ اللَيلَ يَسهَرُهُ * * * * * مُقَلَّبَ القَلبِ بَينَ اليَأسِ وَالأَمَلِ

أَينَ الجِراحاتُ مِن جِرحٍ بِأَضلُعِهِ * * * وَأَينَ بيضُ المَواضي مِن جُفونٍ عَلي
يا ضارِباً يوسُفاً في حُسنِهِ مَثَلاً * * * *جَلَّ اِبنُ أَفعَلَ عَن مِثلٍ وَعَن مَثَلِ
خُذ ما تَراهُ وَدَع شَيئاً سَمِعتَ بِهِ * * * في طَلعَةِ الشَمسِ ما يُغنيكَ عَن زُحَلِ (52)

تذكرنا الأبيات بالشعر العزري، لما تحبل به من شدة الوله بالمحبوبة، والذي يدفع المحب المتيم إلى عشق معنوي، يتغنى فيه بالمضامين السامية للحب التي تشوبها الشوائب الحسية المادية. وقد امتاز ابن خفاجة بالرقة والعذوبة.

وفي قوله:

تحمل ما شاء من رقة *** فحيي عن المشرق المغربا
وكاد ما فيه من بلة *** يسوم الصحيفة أن تعشبا
فلله قولي ما أهذبا *** ولله لفظي ما أعذبا (53)

يتفنن الشاعر بعلم البديع، كما في قول أبي تمام:

عقاراً نماها الكرم فهي كريمة * * * ولم تزن بابن المزن فهي حصان (54)

وقد تناص مع إمريء القيس بالتعبير عن وحشية الليل بأمواج البحر، وهي تطوي ما يضاف بها لتختبر ما عند الشاعر من الصبر والجوع، فيعد هذا الوصف وصف وجداني فيه من الرقة والعاطفة النابضة، وقد كانت من عادة الشعراء القدامى أن يصفوا رحلاتهم بشدة الظلم، وهو تناص يكثف الألفاظ واستعمال لغة شعرية مناسبة تكون متناصة مع غيره من الشعراء.

الخاتمة:

تنوعت مرجعيات التناص عند ابن خفاجة، واستطاع الارتقاء بنصه الشعري، وفتحه على مدارات زاخرة بالمعاني، واستقى من القرآن الكريم، ومن الحديث الشريف ما يخدم نصه، ومن أقوال الصالحين بصور مختلفة، ونوع تناصه بما جاء من خليط أقوال الشعراء بثقافاتهم المختلفة، مما أدى غلى تمايز شعره من خلال عمليات إبداعية لكل الطرق التي أشار إليها في مضمون شعره.

قد جاء التناص في وعي ابن خفاجة بالفكر الديني، ووقوف الانسان أمام قدرة الله عز وجل عاجزاً، وتطرق لمعاني البعد التقويضي للإنسان، وذلك من خلال القوة الإلهية، وحتمية الموت، وعبثية القدر.

قد وظف ابن خفاجة التراث الديني والشعري الذي يتناغم مع ألفاظه، ومعانه، وقد حملت بعداً ثقافياً من خلال ذلك التوظيف من خلال معرفته بالأدب العربي وشعرائه، وقد كان ذلك جلياً واضحاً في استثمار النماذج من خلال الرؤية والتوضيح

ويوصي الباحث بأن يتم الحديث عن التناص كرسالة علمية تقف على كل من أنواع التناص وتقسيماته المتفرعة، ودرسها من النواحي التاريخية، مما يستفاد منه في دراسة الشعر الأندلسي، لكون ابن خفاجة جزءاً من هذا العصر وتاريخه، وبدراسة التناص عند بقية الشعراء الأندلسيين، أو المقارنة بينهما، للوقوف على نسب التناص المتفاوتة.

المراجع:

- ابن المبارك: الزهد والرقائق: تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي: جمهرة اللغة، مؤسسة الحلبي وشركاؤه للنشر والتوزيع، القاهرة، ج1.
- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، الرياض، دار طيبة.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ج 98/7
- ابن منظور: لسان العرب، مادة بهت، المكتبة العلمية، بيروت –لبنان.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر البرمكي الإربلي (المتوفى: 681هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، المحقق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، الطبعة: الجزء: الأول الطبعة: 1900
- عباس، إحسان (المتوفى: 1424هـ): تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، دار الثقافة، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى: 1962.
- الأصفهاني: الأغاني، بيروت/ لبنان، دار الثقافة، 1996.
- التلمساني (م 1041هـ): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب: المحقق: إحسان عباس، دار صادر بيروت، لبنان، ط1، 1997م.
- ديوان الهذليين، ترتيب وتعليق: محمّد محمود الشنقيطي، الناشر: الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة - جمهورية مصر العربية، عام النشر: ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م.
- ديوان امرئ القيس: تحقيق: حنا فاخوري، بيروت، لبنان، دار الجيل.
- شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: 626هـ)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، 1995 م الجزء الثالث
- صبري حافظ: التناص وإشاريات العمل الأدبي، مجلة عيون المقالات، ع2، 1986م
- الطبري: جامع البيان عن تأويل أي القرآن: تحقيق: عبدالله بن عبد المحسن تركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط1، 1422هـ، 2001م.
- طه، محسن عبدالله: أهداف ومقاصد موضوعات سورة التوبة دراسة تحليلية، رسالة ماجيستير، كلية أصول الدين، الجامعة الاسلامية، 2008م.
- الغذامي ، عبد الله : الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية، النادي الأدبي الثقافي، جدة، المملكة العربية السعودية، 1391.
- الفتح بن خاقان بن أحمد بن غرطوج، أبو محمد (المتوفى: 247هـ)، قلائد العقيان، طبعة: مصر، عام النشر: 1284هـ - 1866م.
- خفاجي، محمد عبد المنعم: الأدب الأندلسي التطور والتجديد، دار الجيل بيروت، ط1
- مسلم بن حجاج: صحيح مسلم –دار إحياء التراث، بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي: رقم (6635).
- مسند أحمد، المحقق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبدالمحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط: الأولى، 1421هـ2001 - م: رقم الحديث (22808).
- مصطفي إبراهيم و آخرون "المعجم الوسيط، مادة (نصص)،مجمع اللغة العربية، دار أحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
- المقري (المتوفى: 1041هـ) حاشية نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق، إحسان عباس، الجزء الأول.

- نور الدين، محمد: ابن خفاجة شاعر شرق الأندلس، دار الكتب العلمية لبنان، ط1990،1م.

الهوامش:

1 - ينظر: نور الدين، محمد، ابن خفاجة شاعر شرق الأندلس، دار الكتب العلمية لبنان، ط1990،1م، ص23.

2 - الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (المتوفى: 626هـ)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، 1995 م الجزء الثالث، ص354.

3 - خفاجي، محمد عبد المنعم: الأدب الأندلسي التطور والتجديد، دار الجيل بيروت، ط1، ص503.

4 - ديوان ابن خفاجة، مصدر سابق، المقدمة ص1.

5 - المقري (المتوفى: 1041هـ) حاشية نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق، إحسان عباس، الجزء الأول، ص169.

6 - عباس، إحسان (المتوفى: 1424هـ): تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، دار الثقافة، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى: 1962، ص80.

7 - الفتح بن خاقان بن أحمد بن غرطوج، أبو محمد (المتوفى: 247هـ)، قلائد العقيان، طبعة: مصر، عام النشر: 1284هـ - 1866م، ص230.

8 - ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ج 98/7، مادة نص.

9 - اللسان، (ن ص ص)، ويُنظر لمثله القاموس المحيط، نصص، الفيروز أبادي، والمخصص، السفر السابع، باب سير الإبل، ص 186. والكليات، ص 908 والمعجم الوسيط(نصص).

10 - مصطفى إبراهيم وآخرون" المعجم الوسيط، مادة) نصص (مجمع اللغة العربية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.

11 - الغذامي، عبد الله: الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية، النادي الأدبي الثقافي، جدة، المملكة العربية السعودية، 1391، ص320.

12 - واللجوء إلى القرآن أو الكتب السماوية الأخرى، يفجّر لدى الشاعر طاقات دلالية وإبداعية جديدة، الأمر الذي يعزز لديهم بناء الرؤى الشعرية، فالتفاعل مع هذه الكتب المقدسة باقتباس نصوصها يمنح الشاعر بناء نصه الجديد، وهذا النوع من التناص ليس مجرد اقتباس للنص القرآني أو لتزيين القصيدة به، فهدف الشاعر هنا هو استيعاب النص والإفادة منه. صبري حافظ: التناص وإشاريات العمل الأدبي، مجلة عيون المقالات، ع2، 1986م، ص93.

13 - ديوان ابن خفاجة: ص404.

14 - المصدر نفسه ص11.

15- ابن منظور: لسان العرب، مادة بهت، المكتبة العلمية، بيروت –لبنان.

16 - سورة النساء/ 20

17 - ديوان ابن منظور: ص17.

18 - المصدر نفسه /28.

19 - ابن منظور: لسان العرب: مادة كدر.

20 - ديوان ابن خفاجة: ص12.

21 - المصدر نفسه: 120.

22 - المصدر نفسه ص24.

23 - المصدر نفسه ص63.

24 - ديوان ابن خفاجة: ص199.

25 - المصدر نفسه ص144.

26 - المصدر نفسه ص156

27 - الطبري: جامع البيان عن تأويل أي القرآن: تحقيق: عبدالله بن عبد المحسن تركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط1، 1422هـ، 2001م، 1/ 64.

28 - ديوان ابن خفاجة: ص173.
29 - المصدر نفسه ص57.
30 - ديوان ابن خفاجة: ص57.
31 - المصدر نفسه ص192.
32 - المصدر نفسه ص 192.
33 - المصدر نفسه ص56.
34 - ديوان ابن خفاجة: ص95.
35 - المصدر نفسه ص31.
36 - الصدر نفسه ص136.
37 - ديوان ابن خفاجة: ص145.
38 - المصدر نفسه ص15.
39 - بن حجاج، مسلم: صحيح مسلم– دار إحياء التراث، بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي: (8/ 11)، رقم (6635).
40 - ديوان ابن خفاجة: ص44.
41 - التلمساني (م 1041ه): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب: المحقق: إحسان عباس، دار صادر بيروت، لبنان، ط1، 1997م، 3/ 191.
42 - صحيح مسلم: كتاب الطهارة، 1/ 36، رقم (8).
43 - ديوان ابن خفاجة: ص113.
44 - ابن المبارك: الزهد والرقائق: تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1/ 167.
45 - ديوان ابن خفاجة ص15.
46 - المصدر نفسه ص 169.
47 - مسند أحمد، المحقق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط: الأولى، 1421هـ - 2001م: رقم الحديث (22808)، 37/ 466.
48 - ديوان ابن خفاجة: ص14 و15.
49 - المصدر نفسه ص134.
50 - المصدر نفسه ص36.
51 - ديوان الهذليين، ترتيب وتعليق: محمّد محمود الشنقيطي، الناشر: الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة - جمهورية مصر العربية، عام النشر: ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م، ص60.
52 - ديوان ابن خفاجة ص 141.
53 - ديوان الهذليين: ص114.
54 - ديوان ابن خفاجة: ص235.